المشهد
العدد 340 – السنة الرابعة عشرة -الثلاثاء 15 يوليو 2025 م الموافق 20 محرم1447 هـ

قالت العرب
"مقهى، وأنت مع الجريدة جالسٌ
في الركن منسيًا، فلا أحد يهين
مزاجك الصافي، ولا أحدٌ يفكر باغتيالك
كم انت منسيٌّ وحُرٌّ في خيالك! "

أوراق العميد ومراسلاته الخاصة تكشف :

إيذاء طـه حسيـن: فتش عن الدكتاتورية

عندما يكون المدنيون جلادون و أكثر طغيانا وأشد استبدادا من العسكريين! على ضوء ما وثقه وسجله الدكتور أحمد زكريا الشلق، عن العميد طه حسين (١٨٨٩-١٩٧٣) فى مؤلف ضخم يحتوى على أوراقه ومراسلاته الخاصة – يتكون من ثلاثة أجزاء، يقع الأول منها فى ٣٩٧ صفحة من القطع الكبير، والثانى فى ٤٨٤ صفحة والجزآن الآخران بعنوان المقالات الصحفية من ١٩٠٨ حتى ١٩٦٧ ويقع في٧٥٢ صفحة والأخير يتضمن بقية المقالات ويقع في٤٩٢ صفحة – سيكتشف المتأمل فى سيرة العميد أننا اليوم ونحن فى العام ٢٠٢٥ لم نتقدم كثيرا عما كنا نقف على عتباته فى ذلك الزمان البعيد من بدايات القرن العشرين!؟كانت القضايا التى تجمعنا حولها هى الاستقلال وطرد الاحتلال الأجنبى من مصر، وتمصير الاقتصاد الوطني! كنا على أعتاب الاستقلال، وبعد الثورة المجيدة فى يوليو ٥٢ حصلنا عليه، تم إجلاء العدو الانجليزى عن البلاد، لكن الاحتلال الداخلى لم نستطع هزيمته حتى الآن!

رغم مرور قرن على سقوط الاحتلال الأجنبى .. مازال الاحتلال الداخلى قائما بشدة!

إسماعيل صدقى رئيس الوزراء المصري.. وجه بغيض للديكتاتورية والاستبداد وولاؤه للقصر والاستعمار الانجليزي!

سر الشجيرات الاربعة التى اصر عم اسماعيل البستانى على نقلها إلى السكن الجديد للعميد !

أول مصرى يتقلد منصب عمادة كلية الآداب بالانتخاب..الفارق الديمقراطى بين الأمس واليوم عمره مائة عام

كبار الباحثين وطلبة الدكتوراه المبتعثون إلى الخارج ارتبطوا به وغسلوا همومهم النفسية والمادية على ضفافه

خدعة عبد الحميد بركات الديمقراطية لإسقاط فيلسوف الجيل احمد لطفى السيد فى الانتخابات التشريعية!

الجلاد صدقى باشا حكم بالحديد والنار ..ألغى دستور ٢٣ وأسس حزبًا جديدًا وصحيفة تنطق بلسانه إمعانًا فى إهدار سلطات الأمة !

ناصب العميد العداء .. فشل فى اغرائه وشراء ذمته وتأييده فنقله لوظيفة أصغر دفعته للاستدانه من البنوك !

ايذاء طه حسين امتد الى طرده من السكن المخصص لأساتذة الجامعة .. الشركة البلجيكية نقلته من شقة الى اخرى ليدفع ايجارا عنها!

مساجلات فكرية وثقافية وشخصية ربطت بين العميد وكبار المثقفين من شراسة العقاد إلى بساطة مندور وسليم حسن وسليمان حزين

كنا نظن أننا ونحن على أعتاب هزيمة العدو الاجنبي، سنهزم العدو الداخلى أيضا.. كنا على عتبات الحرية والديمقراطية والتقدم ومصارعة الاستبداد.. كافحت مصر فى صدر القرن الماضى من أجل كل هذا، وناضلت بقوة من أجل الاستقلال.. لكن الغريب أنه الوحيد الذى تحقق، أما الحرية والديمقراطية ومصارعة الاستبداد فمازالت قائمة!

مازالت نفس المطالب هى التى طالب بها ودعا اليها رموز مصر، منذ بداية القرن العشرين وحتى العشرية الثالثة من القرن الواحد والعشرين!

العمادة بالانتخاب

بحسب ما دونه وسجله الدكتور أحمد زكريا الشلق واحتفظ به التاريخ المصري، فإن طه حسين كان أول عميد مصرى منتخب فى تاريخ الجامعات المصرية. وصل إلى منصب العمادة بكلية الآداب مرتين بالانتخاب . فى المرة الاولى عام ١٩٢٨ انتخبه زملاؤه بالإجماع.. ومع هذا رجاه وزير المعارف على الشمسى باشا – وكان قد وقف فى صفه أثناء أزمة كتاب الشعر الجاهلى – أن يتنازل عن منصبه هذا، لكى لا يعطى ذريعة للأساتذة الأجانب الموجودين فى الجامعة بالاستحواذ على مناصب الجامعة، استجاب العميد لرجاء الشمسى باشا مشترطا أمرًا واحدًا وهى أن يمارس مهامة لمدة يوم واحد فقط، وقد كان. ومرة اخرى انتخب طه حسين عميدًا لكلية الآداب فى عام ١٩٣٠، بعد انتهاء مدة العميد الفرنسى مسيو ميشو، وظل فى منصبه حتى تم فصله منه فى مارس ١٩٣٢.. بقرار من الجلاد اسماعيل صدقى باشا رئيس وزراء مصر أنذاك.

إسقاط الفيلسوف الديمقراطى !

مايهمنا هنا اولا فى هذه السطور، هو أن مصر التى كانت تتقدم صوب الحرية والديمقراطية فى صدر القرن الماضي، عرفت الانتخابات الديمقراطية فى ذلك الزمن البعيد، قبل قرن أو أكثر قليلا، فى داخل الجامعات المصرية ! أى منارة تلك كانت تتجلى فى هذه المؤسسة التى عرفت الرجل الأهم فى بداية القرن وهو فيلسوف الجيل لطفى السيد؟ هذا الفيلسوف الذى كان ملء السمع والبصر، واعتبر استاذ الجيل، ومع هذا عندما رشح نفسه للانتخابات البرلمانية وكانت شعبيته كبيرة، سقط سقوطا مدويا بخديعة بسيطة وحيلة لجا اليها منافسه فى الدائرة عبد الحميد بركات، حيث اوعز للبسطاء من الناخبين أن لطفى السيد رجل علماني، كافر.. وسيأتى غدا ليحدثهم عن الديمقراطية وهى تعنى الكفر.. وقد كان!

كانت هذه صياغة وشرحا قدمه لنا ونحن طلاب أستاذ التاريخ الحديث والمعاصر فى كلية الآداب جامعة عين شمس عام ١٩٨٤ الدكتور أحمد زكريا الشلق الذى ننهل من كتابه أوراق طه حسين ومراسلاته الخاصة هذه السطور.

هذه الواقعة على أهميتها رويت بأكثر من طريقة، وعولجت بأكثر من تفسير، والغريب أن بطلها ينفى كليا أن تكون هى السبب! قدمت الواقعة بطرق مختلفة.. فالصديق المفكر والمبدع د. عمار على حسن كتبها فى مقال له بهذه الطريقة: «عام ١٩١٣، خسر المفكر أحمد لطفى السيد انتخابات الجمعية التشريعية المصرية، بعد أن اتهمه منافسه أمام أبناء الدائرة الريفية بأنه «ديمقراطي»، أى يقبل أن تعاشر زوجته رجالًا آخرين. وبعد أكثر من قرن، ما زال الليبراليون يواجهون التهم نفسها، على شكل «مدنية يعنى أمك متلبسش حجاب».(المنصة فى ٣٠ نوفمبر ٢٠٢٤)

– وروتها الكاتبة الصحفية اقبال بركة بشكل آخر .. كتبت فى المصرى اليوم بتاريخ ١٦-٣-٢٠١٩ تقول : «... فى عام ١٩١٣م رشح لطفى السيد نفسه لمجلس النواب فى مركز السنبلاوين- محافظة الدقهلية، ودعا فى خطبه إلى الديمقراطية، واستغل مُنافسه جهل الناخبين، فزعم لهم أن الديَمقراطية معناها أن تتزوج المرأة أربعة رجال، كما يتزوج الرجل أربع نساء!، وعندما سألوا لطفى السيد: هل ينادى حقاً بالديمقراطية؟، أكد ذلك، دون أن يشرح لهم المعنى الحقيقى للديمقراطية، فظنوا أن ما قاله خصمه صحيح، وأسقطوه فى الانتخابات».

– عصام الزهيرى كتب عن نفس الواقعة بالطريقة التالية: «تلك الانتخابات التى جرت من مائةٍ وعشرةٍ من الأعوام تركت أثراً عميقاً على السياسة والانتخابات فى مصر إلى اليوم، وهذا الأثر نتج عن خطأ ارتكبه «أستاذ الجيل» و«أرسطو العرب» و«أبو الجامعة» و«أبو الليبرالية المصرية» على ألقابه الكثيرة المشتهرة، المفكر والسياسى أحمد لطفى السيد (١٨٧٢ – ١٩٦٣).

تضعنا تلك الواقعة وما ترتب عليها، أمام ممارسة متكررة للساسة فى مصر، عندما يتنكرون لمبادئهم المعلنة، ويسلكون مسالك منافية لتلك المبادئ، متصورين أن مجرد الإعلان كاف لكسب المصداقية السياسية والحفاظ عليها، مقللين من شأن العامة – الناخبين أصحاب الأصوات – الذين وإن صودرت أصواتهم – كما يتكرر فى الانتخابات المصرية عبر تاريخها – تظل لديهم نظرة ثاقبة يكشفون بها المتلاعبين بهم، ولو بعد حين».

قصة حياتى ..ترفض وتنفى الشائعات

وبحسب مذكرات الأستاذ احمد لطفى السيد المعنونة «قصة حياتي» فإنه يرفض كل ما نقل واستقر عن هذا الأمر – سقوطه فى الانتخابات – على مر السنين فى التاريخ المصرى برمته ! ويقول فى كتابه: «وقد أشيع أن الذى أسقطنى هو دعوتى إلى الديموقراطية التى كانت تؤول تأويلات بين الناخبين فيها خروج على الدين الإسلامي، ولكنى لا أعرف شيئًا عن هذه الإشاعة التى قيل إنها شاعت بين الناخبين، كما لا أعرف سبباً لسقوطى فى الانتخابات إلا تدخل الحكومة وعملها لإسقاطي».

المدنيون ايضا جلادون وديكتاتوريون!

الذى نلاحظه هنا ان قضية الانتخابات والديمقراطية التى كانت وماتزال حجر زاوية فى التاريخ المصرى الحديث والمعاصر، كان يمكن أن تؤدى إلى إقامة جمهورية مصرية ديمقراطية حديثة، لا تترك فيها الديكتاتورية العسكرية هذه الندوب الغائرة .. التى مازالت تحكم الخناق حول عنق مصر إلى اليوم. العسكر ليسوا وحدهم الذى انقادوا للحكم الديكتاتورى الاعمي، وانما هناك رجال حكموا بالحديد والنار أيضا منهم صدقى باشا هذا الذى ترأس وزراء مصر، وحاول أن يحرك العميد كما عرائس الماريونيت. فقد طلب منه أولا أن يشرف على تحرير صحيفة الشعب، فى الشهر نفسه الذى انتخب عميدا للكلية، وعرض عليه أن يكون ذلك بأى شروط يطلبها، حتى لو كتب مقالاته بدون توقيع.. لكنه اعتذر عن ذلك، ولم يرضخ أبدا له لانه راى فى ذلك مقدمة للإخلال باستقلال الجامعة.. كل هذا عجل بالصدام بين الجانبين، لكن مصدرا آخر من مصادر تلك الفترة يشير إلى أن احد الاحتفالات التى كان مقررا إقامتها بحضور الملك، ويتم خلالها توزيع جوائز ونحو ذلك لم تعجب الملك، حيث كان مردودها قليلا وليس كما توقع، فما كان منه إلا أن أمر بنقل العميد إلى وظيفة مراقب فى وزارة المعارف!.

– فى جلسة بتاريخ ٣٠ مارس ١٩٣٢ يقرر مجلس الوزراء برئاسة إسماعيل صدقى باشا عزل طه حسين، وهكذا ينقطع مورد رزق الأسرة الوحيد مرتب الأستاذ العميد. وتُبلَّغ كل الجهات أن طه حسين شخص مغضوب عليه من السراى ومن الحكومة، وأن التعاون أو التعامل معه يُعتبر تصرفا غير ودى ضد حكومة مصر وملكها.

وتُبلَّغ شركة مصر الجديدة «البلجيكية» أن طه حسين لم يعد من موظفى الحكومة المصرية، ولذلك يتعين عليه أن يخلى المسكن الذى تؤجره الشركة له فى شارع المنيا؛ لأنه من المساكن المخصصة لسُكنى موظفى الحكومة. والشركة البلجيكية مضطرة للتنفيذ، فهى تطلب من طه حسين أن يترك مسكنه الذى قررت الحكومة أنه لم يعد له حق فى سكناه، ولكنها تبلغه أن المسكن المجاور «ومدخله فى شارع الساكركين» ملك لها، وليس مخصصًا للموظفين، وهو خالٍ فى الوقت الحاضر فهى تؤجره له.

يبدأ نقل الأثاث من مسكن العميد إلى المسكن الجديد (حملا على الرؤوس والأكتاف) ويساعد فى ذلك بهمة – وبسخط على الحكومة شديد – عم إسماعيل.

عم إسماعيل البستانى وشجيرات طه حسين

البستانى عم اسماعيل عاد مرة اخرى – خلال شهر إبريل – إلى الشقة القديمة بعد انتهاء النقل، ومعه فأس كبيرة، وبدأ يحفر حفرًا كبيرة حول الشجيرات الأربع التى كان العميد قد اعتاد أن يقرأ فى ظلها، وكان تصميمه مؤكدا على ضرورة أن يخلعها، وأن يحملها وينقلها إلى حديقة البيت الجديد، فى مكان مماثل للمكان الذى كانت مزروعة فيه. هذه الأشجار هى أشجار طه حسين، وهى لذلك لا شك سترفض أن تموت حتى لو نُقلت فى أول الصيف، فى مصر الجديدة، وهى كبيرة ضخمة ذات جذور وفروع.

درس بليغ للعميد فى مقاومة الاستبداد

يعطى عميد الأدب العربى – وهناك إشكالية حول هذا اللقب قد نتطرق إليها فيما بعد، بشكل مختلف تماما عن لقب العميد الآخر، والذى ناله بالانتخاب كـ«عميد» لكلية الآداب – درسا بليغا للكل، فى أهمية وضرورة مواجهة الاستبداد والديكتاتورية، التى سادت فى عهد صدقى باشا، فقد قرر العميد المواجهة، فرغم أنه فقد منصبه ومصدر رزقه، إلا أنه بالقطع لم ينعزل أو يبتعد أو ينكفئ على نفسه، ولم يفقد مكانته لدى أصدقائه وتلاميذه وقرائه، ولكنه – كما يشير مؤلفنا الدكتور احمد زكريا الشلق- انتقل إلى مرحلة جديدة من حياته، تخفف فيها من قيود الوظيفة ومتطلباتها، وبدأ يشتغل بالصحافة من جديد، والسياسية منها بشكل خاص، بين عامى ١٩٣٢ و١٩٣٤، فحرر المقالات الافتتاحية لصحيفة السياسة، وبعد عام تقريبا انتقل إلى صحيفة الوفد المسائية «كوكب الشرق»، ورسخ فى يقينه أن مكانه الطبيعى هو فى صحف حزب الوفد وكان فى تلك الايام يعرف بإنه حزب الاغلبية الشعبية، والتى بالأساس انتصرت لقضيته داخل الجامعة وخارجها.. وعلى الرغم من انخراط العميد فى السياسة، إلا انه لم يهجر الادب.. ذلك العالم الأثير لديه، فحرص على موالاة الصحف بأحدث مساهمات نقدية له ولم يكد يمر عام إلا وقد جمع مقالاته بين دفتى كتاب، عن حافظ وشوقى وصدر عام ١٩٣٣، كما نشر كتابه «فى الصيف»، كما نشر الجزء الأول من كتابه المهم «على هامش السيرة» .

الدكتور أحمد زكريا الشلق يرى أن قراءة رسائل طه حسين وأوراقه الخاصة – ونحن نرى معه – تكشف عن جوانب خصبة من حياته، وذات أبعاد إنسانية ونبل ورقى لعله أسهم فى تكوين كثير من تلاميذه فكريا وثقافيا.. ويصب على المدى البعيد فى مشروعه الثقافي.

ولاحظ د. زكريا أن طه حسين كان يمتلك قدرة عالية ومثابرة على متابعة طلابه فى مختلف مراحل تكوينهم العلمي، وكان يثابر على متابعتهم وإرشادهم ويقترح عليهم الموضوعات فى حنو وحزم، ويساهم كذلك فى حل مشكلات الابتعاث التى تواجههم، حتى يعودوا إلى مصر و«تتمصر الجامعة المصرية» على أيديهم ويحلون محل الأساتذة الأجانب. كانت قضية التمصير مطروحة قبل وبعد ثورة يوليو، تمصير الاقتصاد الوطني، والذى قام به ودعا إليه رجال وطنيون مثل الوطنى البارز طلعت حرب، الذى أسس بنك مصر، والمعروف بأنه أبو الاقتصاد الوطني، ثم وبعد الثورة كان هم الثوار بقيادة جمال عبد الناصر تمصير البنوك والمؤسسات الأجنبية.. وطبقا للدكتورة هدى جمال عبد الناصر فى مقال لها فى عام ٢٠١٤ بالمصرى اليوم، فقد برز دور القطاع الخاص فى الصناعة فى مصر على يد طلعت حرب، وكانت القضية فى ذلك الوقت وطنية، فلقد أراد طلعت حرب ومن معه تمصير الاقتصاد الوطنى، ولكن بصورة مختلفة عما عهدناه من كلمة «تمصير»، والتى تمت بالنسبة للممتلكات البريطانية والفرنسية، بعد العدوان الثلاثى فى ١٩٥٦.

وأضافت: إن التمصير هنا كان يعنى مبادرة الطبقة الغنية فى مصر وإقبالها على المشاركة فى مشروعات كبيرة، لتحل محل رؤوس الأموال الأجنبية، التى كانت تمارس نفوذا كبيرا على الحكم. وفعلا نجحت مبادرة طلعت حرب إلى حد كبير، ولكن غاب عنها البعد الاجتماعى، وظلت الطبقة العاملة فى أسوأ الأوضاع.

ومثلما كانت هناك محاولات لتمصير الاقتصاد، كانت هناك محاولات لتمصير أساتذة الجامعات فى مصر.. ولذلك كان هناك فى الخارج مبتعثون مصريون كثر.. قبل الثورة كان هناك الدكاترة محمد مندور والدكاترة زكى مبارك والدكتور محمد عوض والعلامة سليم حسن وسليمان حزين وغيرهم .

كانت معاناة هؤلاء كبيرة جدا فى تدبير أمورهم المعيشية، بالمبالغ المالية المخصصة للطلاب، وفى رسالة من محمد مندور – أحد كبار النقاد فى مصر فى الخمسينات والستينات – كان يكتب للدكتور طه باستمرار وفى واحدة من الرسائل المؤرخة فى ٣١ يوليو ١٩٢٩ كتب يقول مخاطبا العميد: من العجيب ان تعلقى بكم يزداد يوما عن يوم سواء لاقيتكم أم لا ألاقيكم ، إلى ان يقول «إننى فى خيالى اتصورك منصتا ومحاضرا وماشيا وضاحكا واتصورك ناقدا مستخفا»

اما الدكتور مصطفى الديوانى – وكان وقتذاك مديرا للبعثة التعليمية المصرية فى باريس فيكتب من باريس رسالة للعميد مؤرخة فى ٢٦ نوفمبر ١٩٣٠ يقول فيها: «علمت أن أولى الأمر يبحثون الآن عن مدير للبعثة مكانى بباريس، وبما أنى على جهل تام بكل مايدبر لى أو عليّ، فهل تسمح لى أن أسألك بإفادتى عما يدبر فى ذلك الآن، إذا لم يكلفك هذا عناء كبيرا، ولى عشم فى أخوتك على نحو ما أظهرته نحوى دائما من الثقة التى أفتخر بها».

بقلم: محمود الشربينى